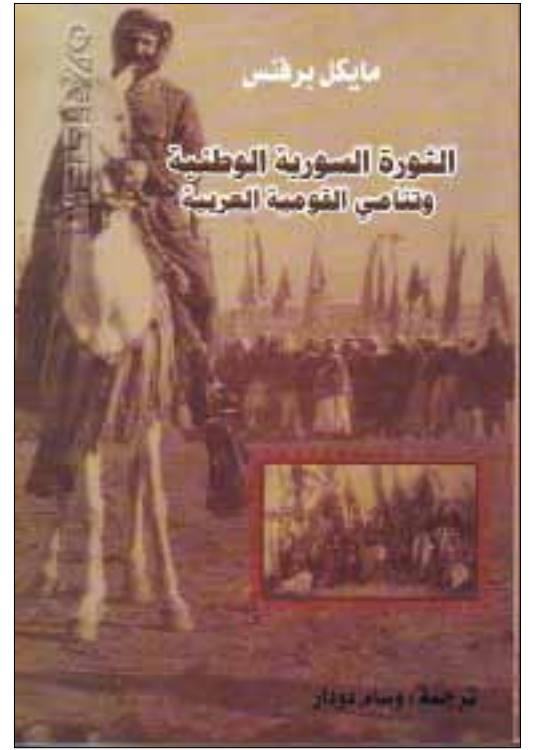


كتب

تاريخ

الأوراق المجهولة للثورة السورية الكبرى



اندلعت عام 1925 وسُحقت بعد سنتين. في «الثورة السورية الوطنية وتنامي القومية العربية» (دار قدمس)، اعتمد الباحث الأميركي مايكل برفنس على 5000 آلاف وثيقة أفرجت عنها الخارجية الفرنسية أخيراً ليروي ذلك المفصل التاريخي وكيف زوّر الانتداب أهداف الانتفاضة ومراميتها

خليفة صويلح

يضيء مايكل برفنس في كتابه «الثورة السورية الوطنية وتنامي القومية العربية» (دار قدمس - بيروت - ترجمة وسام دودار) على ملامسات وكواليس الثورة السورية الكبرى التي اندلعت شرارتها من الجنوب السوري عام 1925، لتشمل لاحقاً مختلف أرجاء البلاد. اعتمد الباحث الأميركي على 5000 آلاف وثيقة، أفرجت عنها الخارجية الفرنسية أخيراً، بالإضافة إلى مقابلات أجراها مع شخصيات عاشت تلك الفترة الملتهبة. سنتعرف هنا إلى وجوه غير تلك التي تصدرت الساحة. أسماء ظلت مجهولة في السردية السورية الرسمية للثورة، فيما تحولت أسماء أخرى إلى أيقونات مقدسة بما يتلاءم مع توجهات مؤرخين مدفوعين بانتفاءهم المذهبية الضيقة.

تكشف الوثائق الجديدة حرص حكومة الانتداب الفرنسي على اختزال الثورة بالصراع بين وجهاء الإقطاع المحلي من جهة، ونظام كولونيالي يرغب في نشر المدنية في البلاد من جهة أخرى. يشير مايكل برفنس إلى محاولة النخب السورية، وطبقة التجار، السيطرة على المتمردين في الأرياف، وسعيهم إلى خطف الثورة.

الصراع الريفي/ المدني، لم يتوقف بجلاء الفرنسيين عن البلاد، بل أخذ شكلاً جديداً على أيدي حكومات الاستقلال من خلال النفي والإقصاء والهيمنة؛ إذ «تكمُن أهمية الانتفاضة في أنها جسدت المناوشات الأولى والصراع على قيادة سوريا بين وجهاء المدن والنخب الريفية الجديدة» يقول. أول التمردات بدأ بحادثة اعتقال أدهم خنجر المتهم بمحاولة اغتيال جنرال فرنسي، وكان قد لجأ إلى بيت سلطان باشا الأطرش (1922)، ما عده الأخير خرقاً للاعتراف المحلية.

هكذا جمع رجاله وانتظر مرور قافلة عسكرية فرنسية متوجهة من السويداء إلى دمشق لإطلاق سراح ضيفه المتوقع نقله إلى دمشق، وقد تمكّن فعلاً من مباغته القافلة وقتل ثلاثة جنود فرنسيين، وأسر خمسة آخرين. لم يكن أدهم خنجر موجوداً في القافلة، إذ نُقل إلى دمشق على متن طائرة في صباح ذلك اليوم. بعد هذه الواقعة، وضعت حكومة الانتداب اسم سلطان باشا الأطرش على قائمة الخارجين عن القانون، ففرّ إلى الأردن، فيما أهدمت أدهم خنجر. انطلقت الثورة السورية الكبرى إذاً، من الأرياف، وهي وفقاً لما يقوله مايكل برفنس «حركة جماهيرية شاملة، كما كانت

السبعينيات، بالإضافة إلى ظهور خيبة أمل في الخطاب القومي. اكتفى السرد الوطني الرسمي ببعض المسلسلات التلفزيونية التاريخية «ولم يعد هناك من مكان لروايات تنافس السرد البطولي الرسمي» الذي تجاهل عن عمد أحد العناصر الجوهرية في الثورة «وحدة أهالي حوران ومجتمع التجار الدمشقيين في تحدي السلطة».

اشتهر حزب «البعث» في سردياته على اعتبار الثورة الكبرى واحدة من سلسلة طويلة من الثورات في مختلف أنحاء البلاد. ويوضح مايكل برفنس في أطروحته أنه «لم تكن الفكرة القومية الوحيدة للتعامل مع التمرد؛ إذ ظهرت في السنوات الأخيرة كتب تؤكد

الجوانب الطائفية للانتفاضة». ويتوقف عند دراسات اللبناني حسن البعيني الذي ذهب إلى سرد طائفي صريح للثورة، متجاهلاً صورة «الأمة السورية»، وهو ما نجده في كتابات كولونيالية موازية سوغت النظرة الطائفية على ما عداها بقصد تسويق فكرة تقسيم البلاد طائفيًا. هناك أيضاً كتابات فيليب حتي وحنّا بطاطو؛ إذ قدم الأول مساهمة رائدة في فهم مكائد النخب الحضرية في السياسة القومية، فيما سعى الثاني إلى سبر جذور النظام السوري المعاصر في الريف، وشرح العملية التي تحول فيها أعضاء مجتمع طائفي ريفي إلى نخب حضرية جديدة.

انتفاضة الجنوب التي بدأت سلمية تحولت لاحقاً إلى مقاومة مسلحة نتيجة التواصل بين زعماء حوران، وبعض الشخصيات الوطنية الدمشقية مثل عبد الرحمن الشهبندر، ونسب البكري. وتكشف وثائق الاستخبارات الفرنسية أن الاحتجاجات الشعبية تجاوزت دمشق نحو حماه، ثم دير الزور، رغم قصف العاصمة مدة يومين كاملين بالمدفعية. لكن هل كانت الهوية



الصراع الريفي/ المدني، لم يتوقف بجلاء الفرنسيين عن البلاد



تكتيكاتها العسكرية أكثر راديكالية مما كانت قيادة النخبة على استعداد لاحتضانها. وكانت الثورة بمثابة الشرارة لظهور سياسة شاملة في العالم العربي، وقد شكّلت انهيئاً حاسماً لنظام النخبة المتمثل في الساسة الوجهاء».

هناك سرديات متباينة للأحداث الوطنية السورية، أدرجها بعضهم في سياق رؤيتهم إلى دولة قيد التشكيل في مرحلة ما بعد الاستعمار، وشدّدوا على الأبعاد الوطنية، ما فوق الطائفية التي سعت فرنسا إلى تعزيزها، من دون فحص دقيق للتباينات الاجتماعية وصعوبة تجانسها كامة. لكن هذه السرديات ستختفي في مطلع

الوطنية السورية واضحة في ذهن المتمردين؛ في الواقع، ظل الجدل محتدماً بين الثوار «هناك من كان يسعى إلى دولة علمانية لا طائفية، فيما دافع بعضهم الآخر عن رموز الهوية الإسلامية التي استبعدت الأقليات». فشل هجوم الثوار على دمشق، أنهى الارتباط المباشر لأهل النخبة بالتمرد، وخصوصاً بعد فرار أعضاء «حزب الشعب» خارج البلاد، وانكفاء أصحاب الأملاك والتجار عن المواجهة المسلحة. وهذا ما جعل المتمردين في الريف المحيط بالعاصمة، يفرضون إتاوات على التجار لدعم الثورة.

تكشف إحدى الوثائق عن رسائل إنذار وجهها القائد العام للثورة في الغوطة عبد القادر سكر إلى تجار في حي الميدان، يفرض فيها «دفع 200 ليرة تركية، وينذرهم بالدفع على الفور». وفي رسالة أخرى «يطلب قائد المنطقة منكم أن ترسلوا 200 ليرة تركية، عشر عبات، بندقيتين ألمانيتين، وكيسين من الخرطوش. تنبيه: تحذركم بعدم التأخير».

خلافاً لادعاءات الفرنسية والاحتجاجات التي قدمها متسلمو هذه الرسائل، فإن هذه المطالب، وفقاً لما يقوله مايكل برفنس «لم تكن ابتزازات بسيطة»، وقد آمن الذين كتبوا هذه الرسائل بانتفاضتهم واعتقدوا بوضوح أنهم في بداية كفاح وطني. في المقابل، لم تخل الانتفاضة من قطاع طرق كانوا يطلبون الفدية وجمع الأموال باسم الثورة. ويستشهد بما كتبه فوزي القاوقجي في مذكراته «أكدت الأحداث ما لمسته وشعرت به: كان أفضلهم فئة الناس العاديين. كانت كل مصائبنا وهزائمنا بسبب طموحات ومنافسات قادتنا الذين كانوا يهتمون فقط بالظهور والرياء». سُحقت الانتفاضة بعد سنتين من اندلاعها، «وبقي صدى صوت الثوار في محفوظات أعدائهم، وفي ذكريات رفاقهم القدامى الذين قضوا».

دراسة

عبد المجيد زراقت روائتنا المعاصرة سجلاً للفقد

علي كريم

يقدم عبد المجيد زراقت في «دروب في الزمن الصعب: قراءات في نماذج من الرواية العربية» دراسة لروايات عربية معاصرة كحقل لإيجاد ما تزخر به الحالة العربية من أنواع الخيبة والهزيمة. جاءت هذه النماذج الروائية المنتمية إلى التسعينيات والعقد الأول من الألفية الثالثة، لتكشف عما تكابده شخصياتها من عوائق في محاولاتها للانقلاب على واقعها، مستعينة بالحلم والوهم تارة، وبالهجرة وكسر المحرمات تارة. دراسة زراقت الأكاديمية تنطلق من النص الروائي لتقضي محتوياته ودلالاتها من حيث المعايير الجمالية والأساليب الفنية دون إغفال المونولوجات والأبنية السردية المتباعدة، وصولاً إلى التراكم اللغوية وتأثيرها في صياغة السرد. كل هذا انتظم في منهجية واضحة

مباشرة تُعتمد في قراءات مماثلة. وقد شرع الباحث اللبناني في تفصيل دراسته اعتماداً على خمسة محاور باعتبارها القضية المركزية في الرواية العربية المعاصرة. في أول هذه المحاور، صنّف زراقت مستويات ما وصفه بـ«الفقد» محلاً لـ12 رواية تُرخي النقاب عن حالات متنوعة من هذا الفقد المتمثل في الخيبة والتيه كما في «ملكة الغرباء» لالياس خوري والخريف يأتي باكراً» لفؤاد مرعي. لكن يستشف من هذه الروايات بداية وعي العربي لما يعوق دروب تقدمه كرواية «رأس الحسين» لعبد الله خليفة و«برج الخديعة» لأمل عبد الله.

في المحور الثاني، يورد مجموعة أخرى من الروايات اللبنانية، وخصوصاً النسوية كـ«حكاية زهرة» لحنان الشيخ، و«جسر الحجر» لليلى عسييران. في هذه القراءات، تنلّس بداية الفاعلية

المُعيرة، إذ تنطرق هذه الأعمال إلى تجربة الجنوب المقاوم نموذجاً للعربي المتمرد على هزيمته وانحطاطه على صعد عدة، بداية من الفقر والجهل وغيرها من الأزمات. «خطاب الخيبة المهيم تقنية الخروج إلى المحذور الجنسي» هو العنوان الفرعي الثالث في الدراسة حيث نلاحظ أنزياً جديراً في حركة الفاعلية الثائرة وسببها الإحساس بالعجز والخبية، إضافة إلى هيائبة الذات العربية العاملة من دون نصر أو تطوير. وفي هذه الحال، يجترح المهزوم انتصارات بديلة لفقدته سهلة التحقق كالتطرق إلى المحرم الجنسي في الأعمال الروائية. ويستدل زراقت هنا بروايتي «بيضة النعامة» لرؤوف سعد و«مرايا النار» لحيدر حيدر.

ثنائية الهجرة: الوطن - المنفى / المنفى - الوطن، تبرّز تنوعاً آخر للخروج من مازق الفقد في المحور الرابع. في «صخرة طانيوس» لأمين



معلوف، تظهر الإعاقات المتتالية للمشروع النهضوي التنموي العربي. وفي رواية «كانت مدينة ملونة»، نرى كيف أنّ انسداد الدروب يؤدي إلى الانفجار والجحيم، والهروب/ الهجرة.

«كيف أخرج من هذا القدر الإنساني الذي لا أستطيع له تغييراً؟» من أبرز الأسئلة التي طرحها الشخصيات النموذجية المستقاة من ثلاث روايات لحسن داوود في محور القراءات الأخير. العجوز في «أيام زائدة» يركن إلى ماضيه مستمداً منه قوة للاستمرار في سعيه المتمرد ضد أسرته في نهاية عمره، وفاديا نصار (ماكياج خفيف لهذه الليلة) تؤثر بداية جديدة، وصحيحة (لعب حي البناض) تستسلم لفقدتها منسحبة للجمود. ما تشترك فيه الشخصيات الثلاث هو اختيارها القبول لمواجهة الوضع الإنساني القاهر كما يشير عبد المجيد زراقت في دراسته.



نماذج صدرت في التسعينيات والعقد الأول من الألفية الثالثة

